الكيمياء العربية

نشرت مجلة ناتشر تحت هذا العنوان رسالة انتها من المستر هولميرد من كلية كلفتون بانكلترا قال فيها انهُ اطلع على كتاب «رتبة الحكيم» لمسلمة بن محمد ابي القاسم المجريطي المتوفى سنة ١٠٠٤ للميلاد (٣٩٥ للهجرة) وهو كيماوي مجرب وكتابهُ رتبة الحكيم ذكرهُ ابن خلدون في مقدمتهِ وقال ان كلامهُ فيه من قبيل الالغاز ولكنني وجدت فيه امرين حريين بالذكر ولو من باب تاريخي » ثم اورد ترجمة هذين الامرين

ووجدنا نحن في دار الكتب العربية نسختين من « رتبة الحكيم » فتناولنا احداهما وهي مجلد متوسط الحجم فيه ٢٣٧ صفحة فتصفحناهُ كلهُ تقريباً واذا اكثر ما فيهِ الغاز من قبيل التحكم والاستنتاج من مقدمات ظنيَّة ولكنهُ لا يخلو من امور امتحانية مفيدة كالامرين اللذين اشار اليها المستر هولميرد الاول وجدناهُ في الصفحة ٧٤ وهذا نصهُ

اخذتُ الزيبق عبيطاً رجراجاً لا شيء معهُ وجعلتهُ في آنية زجاج والآنية على شكل البيضة وجعلتها في آنية أخرى مثل قدر الطبخ وجعلتها على نار لينة في النهاية من اللين وكان مبلغ حرها الى أني امس جوانب تلك القدر فاجدها تحتمل اليد واوقدت عليها اربعين يوماً ليلاً ونهاراً ثم أخرجتها واخذت الزيبق فكان الوزن ربع رطل فوجدتهُ تراباً احمر لين المجسة كانهُ قد سحق في تلك المدة كلها فوزنتهُ فوجدتهُ كما كان في وزنهِ فعلمت ان الرطوبة التي غلبت عليهِ هي المانعة لهذه المجسة والحرارة من الظهور فصار الزيبق كلهُ احمر . انتهى

وقد كتب كلمة عبيط اي بسيط غير مركب بالغين في الكتاب كلهِ وهذا خطأ من الناسخ فيما نظن . ومفاد العمل انهُ احمى الزيبق حتى امتص الاكسجين من الهواء واتحد بهِ وصار اكسيد الزيبق الاحمر . ولا نعلم هل هو اول من ركَّب هذا الاكسيد من الزيبق او سبقهُ غيرهُ اليهِ . ولو دقق في سد الاناء والوزن لوجد ان ما تكون معهُ من الزيبق الاحمر اثقل من الزيبق المعدني بما اتحد بهِ من الهواء . ولو احماهُ ثانية وجمع الغاز الذي يخرج منهُ لاكتشف الاكسجين قبلما اكتشفهُ بريستلي

وشيل فقد ذكرنا في الصفحة ٣ من مقتطف يناير سنة ١٩٢٠ ان الدكتور بريستلي كان يجرب بعض التجارب الكيماوية فوجد ان الزئبق يتحول الى مسحوق احمر اذا أُحمي ببطء وهو السليقون واذا احمي بشدة خرج منهُ هواء مختلف عن الهواء العادي في ان الشمعة لا تنطفئ فيهِ اذا كان في اناء بل تزيد اشتعالاً بنور احمر . واطلق لافوازيه تجارب بريستلي وسمّى هذا الهواء اكسجيناً اي مولد حامض وهو اسمهُ الآن

اما المجريطي فكان فكره كلهُ متجهاً الى استحضار الاكسير والى المشاحنات التي كانت قائمة حينئذٍ بين الذين يصدقون بوجود الاكسير وكونهِ يحول بعض المعادن الى ذهب والذين ينكرون ذلك ولم يذكر ماذكر هنا عن الزيبق الا عرضاً

والامر الثاني الذي اشار اليهِ المستر هولميرد لم نجدهُ الا بعد ان فرغ صبرنا من تلاوة امور سخيفة وكادت العين تظلم من التحديق فاننا وجدناهُ في الصفحة ٢٢٩ من الكتاب وما بعدها فافرج عنا حينئذٍ ونسينا تعبنا وقد رأينا ان لا نكتفي بما ترجمهُ المستر هولميرد بل ننقل الفصل كلهُ اتماماً للفائدة قال المؤلف

ان الاوائل الذين وضعوا الكتب العلمية كجابر والرازي وابن وحشية ومن سلك اثارهم قد وضعوا لهذه الاجساد (اي الذهب والفضة والنحاس الخ) غسولات مثالية كلها . منها بالمياة الحادة ومنها بالحلول ومنها بالاملاح الى ما شاكل ذلك . وانا اقول ان غسلها بعضها ببعض هو اسرع الى غسلها ثم بالارواح ثم بالحجارة وهو الذي ذُكر لك بالاملاح . ومعنى غسلها ازالة اوساخها ولا يمكن ذلك في جسد غير طاهر لان الجسد الطاهر هو الذي يتسخ فاذا قبل الوسخ غسل عنهُ الوسخ فيرجع نقياً الى حالتهِ الاولى. وهذا لا يكون الا في مثل الذهب والفضة اللذين هما الاجساد الطاهرة فان هذين الجسدين اذا مازجا غيرهما من الاجساد الوسخة ظهر السواد الذي هو الوسخ عند لقاء النار . وهذا السواد انما هو للوسخ لا للطاهر . . . فاذا مازج احد هذه الوسخة ذهباً او فضة انتقلت اوساخها اليهما فغسلهما على ما اصف لك. وغسلها ممتزجين معروف عند الناس بالتشبيب ويكون بالاملاح ويكون بالشبوب وهي كلها واحدة لانهُ يزيل الاحتراق والسواد عن الفضة والذهب ويبدي لونهما ونوريتهما ولا يكون هذا الغسل في الذهب ولا في الفضة الا بما مازج النحاس وحدهُ وما مازج احد الرصاصين ولا يكون غسلهُ ابداً

الا بازالة جسم الرصاص عنهُ فافهم وهذا هو الغسل الجيد وهو الذي يفرق بين الجسم الرسخ والجسم الطاهر وذلك مثل الفضة المخلوطة بالرصاص فانها تنفصل عنهُ بان يصنع لها رباص من عظام وهو الذي يسمونهُ رأس الكلب وتسميهِ العامّة الكورجة وهي البودقة فيكون من عظم محرق فيذاب فيها ويشد عليها النار فيشرب الرصاص ويقبلهُ . فالنار تظهر لطيفهُ وتبقي الفضة خالصة لا غش فيها . وكذلك غسلها من النحاس بان يجعل في هذه الآلة ويطعم الرصاص ابلاً حتى تخرج نقية خالصة فهذا وجه من الغسل

واما غسل الذهب من الفضة والنحاس فعلى وجهين فغسلهُ من النحاس وحدهُ مثل غسل الفضة من النحاس بالرصاص ورأس الكلب على المثال المتقدم وان شئت فاطعمها كبريتاً فيحرق النحاس ويبقى الذهب خالصاً

واما غسل الذهب من الرصاص فمثل غسل الفضة من الرصاص

واما غسل الذهب من الفضة فعلى وجهين احدهما بالاحجار والآخر بالاملاح والذي بالاحجار هو بان يرقق الذهب المزوج بالفضة حتى يبقى صفائح ويفرش من حجر الدم المخلوط بالملح وهو الشادنة وتوضع الصفائح عليها ويغطى بالشادنة والملح ويكون ذلك في صحفة فخار احمر ويوقد عليهِ في فرن يعرف عند اهل هذه الصنعة باتون الشحيرة فان الفضة تصير في جوف ذلك التراب المسحوق وتبقى الصفائح خالصة ليس فيها غير الذهب الابريز

وقد يعمل ايضاً هذا العمل بالشب والملح على هذا الترتيب بالذهب المخلوط بالفضة وقد يعمل بالاجر القديم يسحق حتى يصير ترابيا ويضاف اليهِ مثلهُ ملحاً ويسحق سحقاً ناعماً ويفرش فيهِ فرشة في صحفة جديدة من فخار احمر وفرشة من صفائح الذهب وفرشة من التراب كذلك حتى يتم الذهب على قلتهِ وكثرتهِ ويغطى بالتراب المذكور ويوقد عليهِ فان الذهب يخلص وتخرج الفضة في ذلك التراب وهذا الذي يسمونهُ شحيرة عند اهل هذهِ الصنعة

وقد يخلص الذهب ويغسل ايضاً من الفضة كما يغسل النحاس بان يضاف الى الذهب المخلوط بالفضة شيء من النحاس ويسبك الكل ويطعم بالكبريت الاحمر فان الذهب يخلص من الفضة ويبقى خالصاً والاول اجود

وقد تغسل الفضة التي خرجت من الذهب وصارت في تلك الأتربة التي تسمى

شحار التي خلص منها الذهب بان يرمى على ذلك التراب الزيبق ولا يطرح عليهِ شيء فان الزيبق يثخن ويغلظ حتى يأتي كالعجين وهي علامتهُ فاذا صار كالعجين جُعل في قدر على النار وصُعّد عن الفضة وهي التي يسميها اصحاب هذه الكتب من المتأخرين فضة الذهب وهي الفضة الذهبية فاعلمهُ انتهى

وقال بعد ذلك اعلم ايها الطالب « ان الرصاص يخرج منهُ فضة خالصة والقصدير يخرج منهُ ذهب خالص وزيبق ايضاً ولكنهُ قليل » . اما وجود الفضة ممازجة لمعدن الرصاص فامر معروف الآن ولكننا لا نعلم ان احداً يقول الآن بوجود الذهب في معدن القصدير

فرح أنطون

ولد في طرابلس الشام سنة ١٨٧٤ وتخرج في مدرسة كفتين حين كانت برئاسة الاستاذ داود افندي عيسى وكان الاستاذان جبر افندي ضومط وانطون افندي شحيبر من اساتذتها . وانتهى من دراسة برنامجها وهو في السادسة عشرة من عمرهِ

وكان ابوهُ المرحوم انطون الياس انطون تاجر خشب ولهُ بضعة فروع في سوريا والاناضول فاحبَّ ان يعينهُ على العمل التجاري حتى يتولى ادارة العمل . فطاف على تلك الفروع . ثم اشار عليهِ ابوهُ ان يتخذ التجارة حرفة لهُ فمارسها برهة وجيزة . ومع انهُ ذاق لذة الربح منها لم يرتح اليها كحرفة واعتذر لابيهِ عن الاستمرار فيها بقولهِ انهُ وجد معاملة التجار لا تتفق مع اخلاقهِ ومبادئهِ بتاتاً ولذلك لا يعتقد انهُ يستطيع ان يحتمل التنازع التجاري . ولذلك صرف فكره بتاتاً عن التجارة ولم يشأ ابوهُ ان يكلفهُ ما لا يرغب فيه . ومن ثم عكف على الدرس والمطالعة لما كان يستلذه من مؤلفات كبار كتاب الافرنسيس كجان جاك روسو وريتان وغيرهما ثم جعل يطالع مشاهير الكتّاب غير الافرنسيس ايضاً كتولستوى وكارل ماركس وبرنار شو وغيرهم من ذوي المبادىء الديموقراطية والاشتراكية . ولهذا كان معظم حياتهِ متشبّعاً بالمبادىء الحرّة وداعياً لما كان الاوربيون يسمونهُ اخيراً دين الانسانية

وفي ذلك الحين دعي لرئاسة مدرسة في طرابلس انشأتها جمعية الروم الارثوذكس الخيرية فتولى ادارتها بضع سنين قليلة وكانت ناجحة زاهرة لعهده ونالت اعجاب الاهالي. ولكن العمل الحسن وحده لا يكفل دائماً ثبات العمل. فحدثت حوادث قضت بتركه المدرسة وما بقيت بعده طويلاً

وكان في ذلك الحين يكتب ما تثيره المطالعة في ذهنه من الأفكار والخواطر فتصادف في الصحف والمجلات قبولاً وتلاقي من القرّاء استحساناً حتى اذا عاد اليه صدى هذا الاستحسان رغب في الكتابة والتحرير الى ان سولت له نفسه ان يتخذ القلم حرفة. وهو معلوم ان صناعة القلم في سوريا كانت لعهد عبد الحميد مقيَّدة بقيود كأنها سلاسل من حديد حتى كانت محصورة في دائرة اضيق من دائرة السجن. ومرّ تشرب بمبادىء جان جاك روسو وكارل ماركس وتولستوي وامثالهم واصبحت روح هذه المبادىء شطراً من روحه لا يعرف ان يكتب حرفاً في سوريا. فتلك تزح الى القطر المصري اذ كانت مضرب المثل في كونها دار حرية الأفكار ومسرح الاستقلال الفكري المطلق حيث يسوغ لكل فرد ان يقول ويكتب ما يشاء. واقام في الاسكندرية وتربص برهة يدرب فيها قلمه في بعض الصحف والمجلات بامضاءات مستعارة ريثما يرى ماذا يكون وقع كتاباته حتى اذا نفي عنها اقبالاً انشأ مجلة « الجامعة العثمانية » ومن ثم ابتدأت حياته الأدبية العملية ابتداء فعلياً فظهرت فيها مبادئه تمام الظهور لأول عهد صدورها. وما لبثت ان انتشرت انتشاراً مشجعاً له في الشرق وسائر المهاجر التي كثرت فيها النزالات السورية. ولكنه لم يكن ممن يعرفون مقياساً لطاقة الانسان على العمل فكان يحرر المجلة ويديرها ويدير مطبعتها وحده. ومع ذلك كان يشتغل تارة بترجمة بعض المؤلفات النفيسة كتاريخ المسيح لرينان او بترجمة بعض الروايات الممتازة كرواية بولس وفرجيني او يؤلف رواية كرواية اورشليم الجديدة وهي اجدر بان تسمى كتاباً اخلاقياً اجتماعياً من ان تسمى رواية

وكان الشغل على هذا النحو يملأ كل وقت صحوه وبعض وقت نومه فلا يجنح الى مخدعه الا بعد منتصف الليل. ولا يخفى ان الانسان من تراب وللقوة الترابية حدٌّ فلذلك اذا مرَّ عليه زمن على هذا النحو من العمل العقلي المتواصل اعتلَّ واضطر بالرغم منه ان يستريح وبالتالي يتوقف عمله

وحدث في اثناء صدور الجامعة في دورها الأول ان كتب عن فلسفة ابن رشد وبسط عقيدتهُ في الخلق . فرد عليهِ الامام الكبير المغفور له الأستاذ محمد عبده مفتي الديار المصرية حينئذ . ثم اتسعت دائرة المناقشة بينهما وتناولت مواضيع اخرى محورها التساهل في كل من الاسلام والنصرانية . وقد كان لهذه المناقشة حينئذٍ شأن يذكر اذ تهافت عليها القراء في العالم العربي . وكان من نتائجها ان اصدر الفقيد كتاب فلسفة ابن رشد جمع فيه مفصل حياة ابن رشد فيلسوف قرطبة وعقيدته في الخلق وتفاصيل المناقشة بينهُ وبين الاستاذ الكبير

ثم نزح الى نيويورك سنة ١٩٠٦ وهناك اصدر الجامعة مجلة شهرية وجريدة يومية ذات ٨ صفحات وجريدة اسبوعية . ولكن الوسط السوري لم يكن ليحتمل مجلة وصحيفتين من ادارة واحدة مع ما فيه من الصحف فألغى الجريدة اليومية بعد بضعة اشهر وبقيت المجلة والجريدة الأسبوعية . ومع ذلك لم يجد الفقيد ذلك المهجر حقلاً واسعاً لجميع ما فيهِ من الصحف . وشعر ان المركز الحقيقي للصحافة العربية هو مصر . وان مصر هي المصدر الجدير بان تصدر منهُ الأفكار الحرة وتنتشر الى جميع العالم العربي فعاد اليها . وانما لم يترك المهجر الأميركي قبل ان يترك مأثرة حميدة فيهِ تدل على مجرد قصدهِ وخدمة امتهِ وهي انه بذل جهدهُ في دعوة النزالة السورية الى الاشتغال بالزراعة في تلك البلاد الزراعية الرحيبة . اولا لأن الزراعة فيها تجني ارباحاً وافرة . وثانياً لانها تعد هناك حرفة شريفة والحكومة تكرم الفلاحين وتسهل لهم كل سبيل لنجاحهم

فاستكتب عدداً وافراً من السوريين العرائض للحكومة يلتمسون فيها ان تمنحهم مزارع من اراضيها (كل مزرعة ١٦٠ فداناً كما اعتادت ان تفعل) بشروط سهلة . فصادفت هذه العرائض استحسان الحكومة وعطفها وما ترددت قط في تلبية الطلبات وجنح جانب من السوريين الى الزراعة حينئذٍ واصبحوا ملاكاً واثرى كثيرون منهم اليوم

ولما عاد من اميركا وجد في البلاد نهضة وطنية طالما كان يحلم بها للشرق ورأى ان الحركة الاستقلالية قد اختمرت في البلاد فانصرف الى الشغل في الصحافة من الوجهة السياسية واشتغل في التحرير بالصحف الوطنية فحرر فيها كلها تقريباً

وفي الوقت نفسهِ كان يشتغل بتأليف الروايات التمثيلية واقتباسها وهو اول من

سعى في وضع الروايات التمثيلية الغنائية على المسارح وقد سعى لهذا الغرض في تأليف جوقة السيدة منيرة المهدية بادارة زوجها محمود بك جبر وقدم لها الروايات التي اشتهرت بها

مبادئهُ الاجتماعية

تشرب منذ حداثتهِ روح المبادىء الديموقراطية والاشتراكية حتى اثرت على سلوكهِ تأثيراً شديداً .وكان اذا تكلم في اي موضوع ادبي او اجتماعي فانه يخاطبهُ مبشراً من المبشرين بالدين . مع انهُ لم يكن قط يتجر لدين ولا يتعرض للعقائد الدينية بتاتاً

وما زال كذلك الى ان قرأ نيتشه الفيلسوف الالماني فتغيرت مبادئهُ بعض التغير وفطن الى امر لم يكن ليخطر لهُ اولاً .وهو ان المبادىء القويمة وحدها لا تغير قلوب البشر ولا تصلح سلوكهم ولا تقوّم تصرفاتهم ولذلك لا بد من التربية المستمرة لتقويم اخلاق البشر . وان كثيرين من الناس يعلمون الحق ولكنهم لا يريدون ان يؤيدوهُ لانهم لا يزالون يعتقدون ان الدنيا تنازع وهي للغالب . ولذلك كان في كتاباتهِ يحث على التربية على مبادىء الانسانية

ثم ان تشبع نفسهِ بالمبادىء الديموقراطية والاشتراكية قضى بان تكون عقيدتهُ السياسية حق كل امة بالاستقلال الذاتي المطلق وجحد فكرة سيطرة امة على اخرى ورفض اي حجة او عذر لهذه السيطرة . وبناء على هذه العقيدة انشأ مجلة الجامعة باسم « الجامعة المهنية » اولاً وكان من فواتح كتاباتهِ فيها ان على الامم الشرقية ان تتحالف تحالفاً متيناً لكي تقاوم الدول الغربية التي تحاول افتراسها . وكان دائماً يضرب على هذا الوتر في جميع كتاباتهِ . وما زالت الفكرة الاستقلالية تتجسم في نفسهِ حتى لم يعُد يطيق ان يعيش في جو عبودية او جو خلا من امواج الفكرة الاستقلالية

ولما كانت الحركة الوطنية في مصر ناشطة صادفت هوى في نفسهِ فانقطع للشغل في السياسة وتدب لتحرير الجرائد الوطنية حتى المتطرفة منها

وكان دائم الاطلاع على تفاصيل الحوادث السياسية المحلية والخارجية ودقائقها وقابضاً على سلاسلها ولذلك كان اذا كتب في المواضيع السياسية خرج المقال من تحت قلمهِ مشبعاً بالحقائق والحجج والبراهين . ولاسيما اذا كان اسلوبهُ في الكتابة

على غاية من الجلاء والصراحة وحرية الضمير

وفي الحركة الوطنية الاخيرة انضم الى صف المجاهدين اذ دعاهُ صديقهُ الاستاذ عبد القادر افندي حمزه صاحب جريدة الاهالي للشغل معهُ في تحريرها

اخلاقه

كان شديد التمسك بمبادئهِ حتى انهُ كان يضحي بكل مصلحة في سبل تأييدها وقد سنحت لهُ عدة سوانح للكسب الوافر فما لو تساهل بشيء من مبادئهِ . فما كان يبالي بها قط وكانت مدة حياتهِ العملية نحو ثلاثين سنة فلم يتحول قط عن مبادئهِ الاجتماعية

اعمالهُ الادبية

وكتب غير الجامعة كتاب فلسفة ابن رشد والّف رواية «اورشليم الجديدة» وفيها مبادئهُ مبسوطة بكل صراحة ووضوح. ورواية «الوحش الوحش الوحش» ورواية « الدين والعلم والمال » ولخص افيد الروايات ذات المبادئ الحرة وهي « بولس وفرجيني » « والكوخ الهندي «واتيلا» ولخص سلسلة روايات الثورة الفرنساوية لديماس في ٤ مجلدات سماها «نهضة الاسد » . «ووثبة الاسد» «وفريسة الاسد » وكان ينشر في الجامعة رواية من تأليفهِ بعنوان « مريم قبل التوبة » ولم تنتهِ . ولخص كتاب « تاريخ المسيح » لرينان وقد اخذ الكتاب شهرة واسعة

واما رواياته التمثيلية فهي

(١) البرج الهائل (٢) ابن الشعب. وهما مقتبستان وقد قدمهما لجوق المرحوم الشيخ سلامة حجازي (٣) الساحرة (٤) أوديب الملك (٥) « المتصرف في العباد » نصف غنائية وهي مقتبسة (٦) صلاح الدين او فتح بيت المقدس وهي تأليفه وتعدّ من ابدع كتاباتهِ . وهذه كلها مثّلها الاستاذ ابيض

(٧) كرمن (٨) كرمتينا (٩) روزينا (١٠) تايس . وكلها مقتبسة غنائية مثّلها جوق السيدة منيرة المهدية

(١١) مصر الجديدة (١٢) بنات الشوارع وبنات الخدور غنائية من تأليفه مثلها جوق آخر

(١٣) ابو الهول يتحرك وهي ابدع ما الفهُ وكلها غنائية لم تمثل بعد

(١٤) رواية «ذات الورود» لديماس لم تمثل بعد نقولا حداد